فرنسا نزلت إلى «الجحيم»: «سكوربيونز» و«جوداس بريست» والآخرون

أنطوان فليفل
جريدة الأخبار 28.06.2011

حتى اليوم، ما زال الـ«روك ــ ميتال» يقابل بالارتياب... حتى في عاصمة الأنوار التي شهدت قبل أيام الدورة الخامسة من «مهرجان الجحيم» أكبر تظاهرة لهذا النوع من الموسيقى في أوروبا

«سيّدي الوزير، التنوّع الثقافي والموسيقي، ما زال إلى اليوم مخنوقاً في فرنسا الأنوار (...) أتفهّم تماماً الأشخاص الذين لا يحبّون هذه الموسيقى. لكنني أتمسّك بحق مئات الآلاف من الفرنسيين بسماعها والتمتّع بها. البارحة Led Zeppelin، واليوم Metallica،Opeth،Epica،Adagio، Mass Hysteria،Gojira، كلّها فرق موسيقية لذيذة أنصحك بالاستماع إليها. كل هؤلاء الموسيقيين يمكن مشاهدتهم في المهرجانات القادمة، وخصوصاً في الـ Hellfest، أكبر مهرجان روك ـــ ميتال في فرنسا». هذا ما قاله النائب الفرنسي اليساري فيليب روا، متوجهاً إلى وزير الثقافة فريدريك ميتران، خلال جلسة صاخبة لمجلس النواب الفرنسي عام 2009، محتجاً على سياسيين تهجموا على الـHellfest.

تظهر فرنسا هذا العام كأرض مختارة لموسيقى الروك ـــ ميتال. يستقبل الـ Hellfest 80 ألفاً من عشّاق الميتال في كليسون قرب مدينة نانت، ما يجعله أحد أكبر مهرجانات الروك ـــ ميتال في العالم، منافساً نظيره الألماني Wacken Open Air. أقيم الـ Hellfest للمرّة الأولى عام 2006، واستقبل 22 ألف شخص. وبقي عدد المشاركين يتزايد إلى أن بلغ هذا العام حدّ الاستيعاب الأقصى. يقام المهرجان سنوياً في أواخر حزيران (يونيو) ويستمرّ ثلاثة أيام، ويضم مئة فرقة تتركز موسيقاها على أنواع الميتال المختلفة، كالـ Heavy، والـ Thrash، والـ Black، والـ Death.

وصلنا إلى أرض المهرجان في بعد ظهر نهار الجمعة 17 حزيران. المكان مكتظ بالأشخاص المرتدين اللون الأسود والملابس الجلدية المزيّنة بأسماء فرقهم المفضّلة وبمعادن متنوّعة أحيانا. النساء مثيرات وما أجملهنّ... بعد المرور على المدخل الرئيسي لإبراز بطاقة الدخول، وضع الموظّف حول معصمي إسوارا يثبت حقي بالدخول، ويخولّني التنقّل في أرض المهرجان الكبيرة. ولكن قبل التوجّه إلى المسارح الموسيقية، كان علينا نصب خيمتنا. قطع أرض كبيرة خُصّصت لنصب ألاف الخيم التي لم يتردّد بعض أصحابها بغرس أعلام بلدانهم بقربها. كل شيء منظّم: الحمّامات، الدخول إلى المسارح، بيع السلع والمشروبات والأطعمة، مراكز الفرز البيئي... نظافة القسم الأكبر من أرض المهرجان ملفتة، وذلك يعود إلى الفرز البيئي الذي تقوم به الأغلبية الساحقة من المشاركين. يشجّع على ذلك منظّمو المهرجان عبر إبدالهم الزجاجات الفارغة والكبسولات بأكواب البيرة... أمّا الأمر الآخر الملفت، فهو فرح الحاضرين، وطبعهم المرح، وتهذيبهم على عكس ما يمكن لمناهضي هذه الموسيقى اعتقاده. فلم يحصل في ثلاثة أيّام أيّ حادث يذكر، على الرغم من أعداد المشاركين الهائلة وصخب الموسيقى وعنفها أحيانا.

هناك أربعة مسارح موسيقية: الـMainstage 01، والـMainstage 02، والـRock Hard Tent، والـTerrorizer Tent، يختار المشارك أحدها بحسب الفريق الذي يريد سماعه. يبدأ الغناء في تمام الساعة العاشرة صباحا، وينتهي حوالي الساعة الثانية بعد نصف الليل. ولكن حذار لمن يعتقد أنّ بامكانه إراحة أذنيه بعد ذلك. فالـMetal Corner، حيث يوجد الـHell Bar (المكان الذي نتناول فيه طعام الفطور صباحا ونحتسي به البيرة طوال النهار)، يحتوى على مسرح موسيقي، تستعمله فرق الميتال الفتيّة إلى الساعة

الرابعة صباحا أو أكثر. بالقرب من المسارح الموسيقية الأربعة مطاعم كثيرة، ومساحات خاصّة للقاءات بين بعض الفرق الموسيقيّة ومحبّيهم، للإمضاءات والصور. تتكلّل فرحة المشاركين بالسوق الكبير Extrem Market الذي يقتظ بأكثر من مئة تاجر أتوا من بلدان مختلفة لبيع الملابس الخاصة بموسيقى الميتال ومنها للأطفال، والآلات الموسيقيّة والسيديهات، وأنواع متنوّعة جدّا من أدوات الزينة النادر وجودها.

يستطيع المشارك في مهرجان هذه السنة رؤية فرق روك – ميتال عريقة، تغنّي منذ عشرات السنين، مثلUFO،Osbourne Ozzy،Iggy and the Stooges،Mr. Big، Morbid Angel، Dark Tranquility، Therion،Kreator… وأيضا فرقا موسيقيّة أحدث نسبيّا، مثل Opeth، Cradle of Filth،Black Label Society،Anathema،In Flames، Apocalyptica… ولكن الفريقان الذان كان يجب سماعهما حتما هذه السنة هما الScorpions والPriest Judas، ليس فقط لأجل الموسيقى الرائعة والفريدة والأسطورية التي يصنعانها، ولكن أيضا لأنّهما يقومان بآخر حفلاتهما الموسيقيّة قبل التقاعد، بعد حوالي أربعين عاما من العطاء المتواصل والشيّق. الفريقان على المسرح مهولان. فأنت ترى رجالا ستّينيّون يقفزون في كل الإتجّاهات كما لو كان عمرهم عشرين… يلهبون الجمهور الذي يبدو في حالة نشوة… فترى دموع البعض عندما يغنّي الScorpions، Still Loving You، أو Holiday، وتشهد على التدافع الجنوني والHead Banging العنيف عندما يغنّي الJudas Priest، Breaking Law The،Judas Rising، أو Hellrider…

خلال المهرجان، كان لافتاً حضور Orphaned Land، فرقة إسرائيلية يُقال عنها إنها يسارية ومناصرة للقضية الفلسطينية ومبشّرة بالسلام بين المسلمين واليهود. لم يتردّد المغنّي المرتدي زيّاً شرقيّاً بالتذكير بذلك، قائلاً لجمهوره الذي ضمّ عرباً أيضاً إنّه داعية سلام، وإنّ ما فرّقته السياسة تجمعه الموسيقى! كانت هناك أيضاً راقصة شرقية قال عنها المغني إنّها لبنانية. وفي آخر أغنيّة Norra Norra El التي تجمع الموسيقى العربية بالميتال والكلمات العبرية، رفعت الراقصة العلم اللبناني، ورفع المغنّي العلم الإسرائيلي وضمّه إلى اللبناني، داعياً للسلام. يا ليت النيات الحسنة كافية للقضية الفلسطينية وتحرير اليهودية من الوباء الصهيوني.

صلبان، وشياطين، وجهنّم، وشعارات وثنيّة، وثياب مثيرة… كلّها رموز يصعب فهمها لمن لم يدرس رمزيّة موسيقى الميتال، ولمن اعتاد تعليب الحقيقة الإنسانيّة والدينية والثقافية في نظرته الضيّقة للوجود والإنسان. كانت لدينا عيّنات من هذه النظرات في لبنان وما زالت، يوم عُدّ محبّو الميتال عبدةً للشيطان، أو أعداءً لله والدين… كل هذه الاعتبارات نابعة من جهل مؤلم لحقيقة الأمور. الغالبية الساحقة من محبّي هذه الموسيقى متنوعو التوجهات والمشارب. وما رموز الشيطان والجحيم، اللذين لا يؤمن بوجودهما أحد تقريباً من محبّي الميتال، إلا صور فنيّة للتعبير عن التمايز ورفض تقاليد إنسانية ودينية معيّنة تثقل الإنسان.

لم يستطع باتريك روا حضور المهرجان. توفّي في 2 أيّار (مايو) الماضي عن 53 عاماً. ولم يتوانَ الـ Hellfest بتكريم ذكراه. بعد حفلة الـ«سكوربيونز» منتصف ليل السبت، تجمّع عشرات الآلاف في باحة المهرجان وأنشدوا معاً أغنية: Rock We Salute You For Those About To.

ما هي هذه الموسيقى الصاخبة والعنيفة المسماة ميتال؟ يصعب إعطاء إجابة؛ لأنّ هذه الموسيقى كالحب، لا يفقهها إلا من اختبرها وعشقها. ونذكّر هنا بالإجابة التي أعطاها الفيلم الوثائقي العلمي الرائع Metal A Headbanger’s Journey: (2005): «إنّ الميتال هو قوّة روحية، هو السبيل المباشرة التي يتبعها محبّو هذه الموسيقى لملاقاة الله…».

Hellfest 2011, Al-Akhbar, 28.06.2011